

الفصل الثالث

قضايا الشعر والنقد

وبعد أن أرمى إليوت معالم التقاليد وصلتها بالتدرج التاريخي للموروث من التراث الماضي وبين لنا كيف أن الاستفادة من هذا التراث لاتم إلا بالتفاعل معه على أساس موضوعي بحث ، وهذه الموضوعية هي التي أدت بدورها إلى تبلور مهمة الناقد حول تربية الذوق الفني السليم ، كما أن ذلك لا يتأتى إلا بتحقيق المنهاج العلمي الذي يركز على أسس عملية تطبيقية . تعرض إليوت لعدة قضايا نقدية جمعها في كتابه الذي أطلق عليه اسم الغاية المقننة أو مقالات في الشعر والنقد (١) .

لقد استهل هذا البحث بالحديث عن الحركة الانطباعية في النقد وبين لنا عيوب هذه الحركة التي اقتصررت على إيجاد محاسن النصوص الأدبية بواسطة انطباعات الناقد التي هي وليدة الأثرة الشخصية . وغالباً ما تختلط باليوت والأهواء الفردية . مثل هذا النقد إرضاء لتزوات الناقد . وإشباع لمشاعره . وطرحاً للفكرة الأصلية . وبعد عن التحليل المنطقي . فهو ناقص في منهجه ومرماه . مبثوث في أسلوبه وطريقته . غامض كل الغموض لاعتماده على المؤثرات الحسية . فلا غرو إن نتجت عن هذه الانطباعات آراء ملتوية لا تمت بأية صلة للإنتاج الفني المراد تقييمه . فهو نقد يقوم على محض الصدفة . مبنى على إيجاد العلاقات الفردية واختلاق الروابط الشخصية . وتختلط مثل هذه الروابط عادة بعدد من الخبرات الذاتية التي تبعثنا عن المحيط الفني وترجعنا داخل إطار شخصي لا فائدة ترجى من وراقه .

ثم تعرض إليوت بعد ذلك للناقد المحترف الذي يحكم بالضعف أو القوة على إنتاج ما ، وهو في تصلفه إنما يجزم بما يراه طبقاً لما يضعه من أحكام وما يذهب إليه من قوانين لا صلة لها بالعمل الفني . فمثل هذه الفروض غالباً ما ترضى غروره وتشبع رغباته . وكثيراً ما أطيح بالنقد لجره وراء الجدة ، وبحته عن التعاليم الخلقية من وراء الأعمال الفنية . ولقد عانى النقد كثيراً من ميل بعض النقاد الذين حاولوا إيجاد الفروض والقضايا التي تخدم أغراضهم . وبدلاً من إبراز النقاط الهامة التي تستند إلى التحليل المنطقي الدقيق والتي كثيراً ما تغيب عن ذهن القارئ ، نجد مثل هؤلاء النقاد قد أجهلوا أنفسهم في البحث وراء شخصية الكاتب أو الفنان .

إن النقد الصحيح يقوم على الإحساس بوجود اتجاهات عدة اجتماعية وتاريخية وفكرية وأيضاً ثقافية بمعناها العام . إنه شمول هذه الاتجاهات مجتمعة ، فهي تكمل بعضها بعضاً . ويضيف إليوت إلى كل ذلك سبل المعرفة والاطلاع الراسع والإلمام الشامل بالتيارات المختلفة : فن شأنها كلها أن تساعد الناقد على تقييم العمل الفني بمقارنته بغيره ، وبفهمه على حقيقته في غير مغالاة ولا إسفاف . حيثئذ تتضح لنا المتعة الفنية التي نشدها من وراء الخلق المبدع . وتبرز لنا معالم الأعمال العظيمة التي أثرت سميراتها ، والإنتاج الرائع الذي زودنا بحصيلة وفيرة وذخيرة غنية .

هذا فيما يتصل بالنقد أما فيما يختص بالشعر فلقد تعرض إليوت لمشكلة الشعر الفلسفي متخذاً الشاعر الإيطالي دانتي إلبجويري مثلاً له ، ففي « الكوميديا الإلهية » تلتحم الفلسفة بالنسيج الشعري فتشد من خيوطه ، وتتداخل مع مكوناته ، وتصبح جزءاً لا يتجزأ من هذا التنسيق المبدع الذي يكون في مجموعه ذلك الإنتاج الفني العظيم . وهنا نلاحظ تفاعل الفكرة الفلسفية مع الإحساس الشعري فأثره وأخصبته وتخللت كل عناصره قبل أن تمتزج بها جميعاً وتتحد معها كلها . وفي هذا الاتحاد إبراز لقيمتها الجمالية التي تستمدتها بطبيعة الحال من تماسك

الأجزاء المكونة لذلك البناء الشامخ .

وقديماً امتزج الشعر بالفلسفة كما في مؤلفات پارمنيدس وأمبادوقليس ، إذ نجد أن الفكرة الفلسفية قد اختلطت بالقدرة على الإتيان بالوجدان الصادق . وهذا الاتجاه قد انعكس أيضاً على مؤلفات هيراقليطوس وزينون وإنكساجوراس . إلا أن الفضل الأكبر في تقدم هذا الاتجاه يرجع إلى لوقريطوس الذي مزج منهاج الفلسفي بالصور الشعرية الأصيلة ، وحاول في ثانيا عرضه لذلك المنهج أن يبرز لنا المعالم الشعرية المحسوسة في تطابقها مع الأفكار الفلسفية العميقة . إن هو إلا تطابق متكامل للقضايا الميتافيزيقية : وتجسيم للرؤيا الخلاقة ، وتركيز للفكرة الفلسفية في بؤرة شعورية تعتمد على الحدث بقدر اعتمادها على الشعور انصافاً والتأمل الأمين . وهذا هو موطن الجدة في منهاج لوقريطوس وفي شعره الفلسفي وفي محالاته العديدة للتعبير عن الحياة العادية للإنسان في أسلوب أدبي رصين . ولقد ساعده على ذلك ميله الشديد إلى الملاحظة الدقيقة والتفكير المنطقي السليم .

ومع أن الشعر قد سار في خط منفصل عن الفلسفة في معظم الأحيان ، واعتمدت الفلسفة على الفكر المجرد في الوقت الذي حاول فيه الشعر أن يوضح معالم هذا الفكر بمزجه بالقوى الفنية الخلاقة ، نجد في تاريخ الأدب العالمي التحام الخطين في الشعر الميتافيزيقي الذي لا يعتمد على الجدل بقدر استناده إلى الملاحظة التي تستمد قوتها من المشاهدة الفاحصة للمرئيات المختلفة . ويندب إليوت إلى القول في هذا الصدد إن الشعر لم يكن يوماً أصلاً للفلسفة . كما أنه لم يضع الشكل الأساسي لها ، فهي لا تستند إليه في مراحل تطور الفكر أو في تقلباته ، فالعكس هو الصحيح . فلقد غزت الفلسفة ميدان الشعر، واقتحمت محيطه ، وذلك بعد أن تبلورت قضاياها ، ورسخت اتجاهاتها الفكرية ، وأصبحت في متناول الكتاب والشعراء .

ومن هذا يتضح لنا أن دانتي قبل أن يقدم على كتابة كوميدياه العظيمة قد استفاد فائدة لا تقدر من الفلسفة التي سبقته في العصور الوسيطة وأهمها فلسفة القديس توماس الإكويني الإيطالي وألبيرتوس الألماني وأبيلارد الفرنسى ورتشارد أوف سانت فيكتور الأسكتلندى . وهنا يؤكد لنا إلبوت بأن أية محاولة لفصل هذه الفلسفة عن شعر دانتي فيها تجنى لا يغتفر على الشاعر الإيطالي ؛ وفيها دحض لا مبرر له لفنه الأصيل . فلقد استفاد دانتي من هذه الفلسفة بعد تفاعلها مع الحياة ، وهذا هو السر في عظمته إذا ما قورن بلوقربطوس على سبيل المثال . ففلسفة دانتي جزء من حياته وركن أساسى في عالمه الشعرى . واهلنا لا نعدو الحقيقة إن قلنا إنها بمثابة المحور الذى تدور حوله « الكوميديا الإلهية » .

ويلتف حول هذا المحور مستويات عديدة عاطفية ووجدانية ورمزية وكلها متداخلة في الهيكل العام للقصيدة . ويتصل بها كلها الكثير من الفعال والأحداث ، يحددها إطارات وأنظمة فلكية قد ساعدت دانتي على تجسيم فكرته عن الجحيم والمطهر والفردوس . وفي كل ذلك لا نجد دانتي يحلل المشاعر كما فعل شكسبير في كوميدياته ومأساواته بل إنه يبذل جهوداً جبارة لإيجاد الترابط بين المشاعر المختلفة العديدة . ولهذا يصعب على القارئ فهم « الجحيم » على وجهه الصحيح دون الإلمام بالمطهر والفردوس بما فيهما من شخوص وأحداث . إن ما نحس به من نفور وكآبة وعبوس في قراءة « الجحيم » يكلمه إحساس آخر بالجمال وبالشفافية الروحية في الفردوس . هذا بالإضافة إلى التركيب الهرمى الكبير القائم على مدارج المحسوسات والمعقولات والروحانيات .

* * *

إلبوت والقيمة الاجتماعية للشعر :

للشعر بوجه عام وظائف اجتماعية كبيرة قد قام بها منذ العهود القديمة ؛ فكثيراً ما تغنى به القوم في عمليات السحر وشفاء المرضى ودحض أساليب الحسد

والشعر . وفي ظل المدنيات القديمة كان الشعر جزءاً لا يتجزأ من الديانة والمعتقدات المتصلة بها والطقوس التي مارسها القدماء . ثم تلى ذلك ظهور الملاحم العظيمة كالأودسا والإلياذة لهومروس ، والمأساوات الإغريقية التي أثرت في الشعر المسرحي قرونًا عديدة ، وكذلك شعر الرعاة^(١) وشعر الأغاني^(٢) وغيرها من الأنواع العديدة للأشعار التي قيلت في مناسبات اجتماعية شتى ، كما أنها تشيد بمواقف معينة قد خلدها التاريخ .

أما الشعر التعليمي^(٣) فلقد انحصر في الأشعار ذات المغزى الأخلاقي . ويدخل في نطاق هذا النوع من الشعر أصول المنجاء وأغراضه الاجتماعية ثم السخرية التي اقتصت بها الملهاة . ويضيف إليوت إلى ذلك الكناية ذات المغزى الاجتماعي العميق الذي تعرضه بطريقة غير مباشرة فتغلف الحقيقية في ثوب أقرب ما يكون إلى الخيال . هذا إلى ما للشعر من أهداف اجتماعية أخرى الغرض منها الإصلاح والتطوير والبناء . وقد تبني هذا الاتجاه الشاعر الرومانسي شيللي .

ويضيف إليوت إلى ذلك قيمة الشعر في جلب البهجة والسرور والمتعة التي نحس بها إزاء العمل الفني الأصيل ، هذا إلى ما نستخلصه من خبرات وما نشعره من أحاسيس مرهفة أراد الشاعر أن ينقلها إلينا من خلال أسلوبه وبيانه وصوره الشعرية . وفي هذا كله إثراء لمداركنا، وإرهاق لحواسنا، وإشباع لعواطفنا .

وفي ثنايا هذه التيارات كلها تتضح قيمة الشعر وتبلور مفاهيمه الاجتماعية . فهو الأداة الصادقة التي تعبر في أمانة عن مبتغيات القوم وأمانهم ، ومشكلاتهم التي تقتضيها التغيرات الاجتماعية والمادية العديدة على مر الأزمنة والعصور

المتلاحقة . ومكانة الشعراء في رأى إليوت هي الطليعة بل إنه يذهب إلى مدى أبعد من ذلك ويقول إن الشعراء على مر الأيام وكرها قد سبقوا الأزمنة التي عاشوا فيها والأجيال التي عاصرتهم بفضل آرائهم السديدة ، وفكرهم الثاقب ، وبصيرتهم النفاذة إلى أعماق الأمور وبواطن الأحداث .

وتتلور قيمة الشعر أيضاً في إحياء التراث الماضي ، وبعث الثقافات التليدة ، وإنماء الاتجاهات القويمة التي طواها الزمن . فرآته تعكس هذه الصور برمها ، وعلى لوحاته تنقش تطورات الشعب والأجيال ، فهو السجل الخالد للبشرية جمعاء . ولعل شعر شكسبير يبين لنا ما يعنيه إليوت ، فهو لا يختص بأمة بمفردها ، ولا بأدب أو بفن خاص ، إنه الصفحة للألاءة التي تعبر عن الإنسانية كلها بآمالها وأوجاعها ، وبمظامعها وآمالها العريضة .

أما عن الأثر الاجتماعي للشعر فيرى إليوت أنه من الصعب تحديده إذ أنه أثر غير مباشر ، ذلك أنه ينعكس على ميادين مختلفة يصعب تحديدها . وعلى أية حال فإننا نلاحظ دائماً وجود تجاوب واضح بين الشعر والثقافة القومية وبينه وبين المجتمع المتكامل ، وفي هذا التبادل إثراء ، وفيه نفع ونماء ، لا لفرد معين بل للأمم جمعاء . وقد يمتد هذا الأثر أو ذلك التجاوب ليخرج عن نطاق المجتمع الذى وجد فيه لون معين من الشعر ليشمل العالم بأسره في حالات الروائع الفنية العظيمة . وهذا هو ما يعنيه إليوت بالقيمة الاجتماعية للشعر .

• • •

إليوت والشعر الميتافيزيقي :

في مقال لإليوت في مجلة « ألستر » ^(١) أى المستمع في عددها الثاني والستين الصادر بملندن في مارس سنة ١٩٣٠ يعرف لنا الشعر الميتافيزيقي بأنه الوجدان الصادق المعبر عن الفكرة العميقة ، به تتطابق الفكرة مع الخبرة الوجدانية في

التعبير الكلى عن مظاهر « الحقيقة ». والشعر الميتافيزيقي الذى ازدهر فى انجلترا فى القرن السابع عشر لم يهتم بالمشكلات الفلسفية كالوجود والخير والحق بقدر اهتمامه بالمشكلات النفسية والعاطفية للإنسان . ولقد نوه إلى هذا الاتجاه من قبل البروفسور جريرسون الذى أشاد إليوت فى أكثر من مناسبة بفضله الكبير فى إرساء معالم هذا اللون من الشعر . فلقد رأى جريرسون أن الشعر الميتافيزيقي فى نشأته قد اختص بما أطلق عليه اسم « دراما الوجود » وحقائق الكون . ويتمثل ذلك فى إنتاج الشعراء الفلاسفة الثلاث وهم لوريطيوس ودانتى وجينيه الذين أفرد لهم جورج سانتيانا دراسة خاصة متممة . وهؤلاء الشعراء قد عبروا عن « المعرفة » فى شتى مراحلها ، وهذا مما يدل على أن للشعر القدرة على التعبير عن المشكلات الفلسفية بالإضافة إلى تعرضه للخبرات البسيطة التى تتصل بسطحية هذه الحياة من حزن وفرح ، وألم ولذة ، وحب وكراهية ..

ولقد أسس المدرسة الميتافيزيقية فى الشعر الإنجليزى الشاعر جون دون (١٥٧٢ - ١٦٣١) وانضم إليه آخرون مثل جورج هيربرت (١٥٩٣ - ١٦٣٣) وأندرو مارفيل (١٦٢١ - ١٦٧٨) وهنرى فون (١٦٢١ - ١٦٩٥) . وقد اقتصرت باحث هذه المدرسة على المشكلات الدينية والعاطفية والصراع بين المادة والروح .

ويتميز الشعر الميتافيزيقي لهذه المدرسة بوجه عام بفكرة الصراع بين مطالب الجسد وميل الروح إلى الحرية والانطلاق والتخلص من أدرانته وبرائته ، وبالخوف من الموت والعقاب ، وبتجسيم فكرة الشر التى كانت ماثلة أمام غالبية هؤلاء الشعراء . ووجود الرذيلة التى كانت تلاحقهم وتكدر صفوهم . وقد انعكست هذه الاتجاهات برمتها على أشعارهم فجاءت لنا حزينه محملة بآيات العذاب والآلام بل التبرم أحيانا بحقيقة الوجود ذاتها .

والحب فى نظرهم عذرى فى منبته ، سموى فى أصله ونشأته ، متكامل فى مضمونه . فيها هو جون دون على سبيل المثال يطالعا فى قصيدة أطلق عليها اسم

« الذكرى السنوية »^(١) بقوله إنه هو ومحبوبته يكونان عالماً كاملاً لا ينقصه شيء ، أما العالم الذى نعيش فيه فهو ظل بل وخداع لعالمهما الحقيقى المتكامل . وأندرو مارفيل فى قصيدته عن « تعريف الحب »^(٢) يذهب إلى القول إنه وخطبته قد احتلا قطبي العالم فهما بذلك يتحكما فى دوران الأرض بل وفى مستقبل الكون الذى يتوقف إلى حد بعيد على عالم الحب المترامى الأطراف والذى يحده القطب الشمالى حيث يوجد الشاعر والقطب الجنوبى حيث تعيش محبوبته ، وفى تعانقهما تعانق لعالم الحب بأسره .

ولما جاء جون درايدن (١٦٣١ - ١٧٠٠) لم ترق فى نفسه هذه المدرسة ، وآهم جون دون مؤسسها بأنه قد حير عقول العذارى بمناقشاته وفلسفته بدلاً من أن يستحوذ على قلوبهن بالكلمة الرقيقة ، والحس المرهف ، والعاطفة الفياضة . إلا أن الحملة القوية التى وجهت إلى هذه المدرسة فى القرن الثامن عشر قد قادها الناقد الإنجليزى المعروف الدكتور جونسون (١٧٠٩ - ١٧٨٤) الذى بنى آتهامه على أن هؤلاء الشعراء قد تسابقوا فى الجرى وراء كل ما هو مستحدث مع أن الجدة واضحة للعيان وعلى مرأى النظر فى حياتنا اليومية العادية . كما أن اتجاهاتهم كانت تحليلية ولهذا فإنهم لم يتمكنوا من جمعها فى محيط واحد . لكن الحقيقة تنافى هذه الاتهامات فلقد تمكن شعراء هذه المدرسة من إيجاد الصلة والترابط بين المراثيات . وذهب إليوت فى رده على هذه الاتهامات إلى القول بأن الدكتور جونسون قد أبرز فى آتهاماته لهذه المدرسة نفس الأسباب التى يستحقون عليها المديح والثناء . فلقد جمعوا المراثيات المتشابهة فى دائرة واحدة ، وفى ذلك إخصاب وإثراء للصورة الشعرية ، وإبراز لأوجه الشبه والتعارض فى عالمى الفكر والحس . ففى صورهم الخلابه فطنة ، وفى معانيهم أغوار عميقة ، وفى تعبيراتهم قوة وذكاء .

“The Anniversaric”
 “The Definition of Love”.

ومن هنا عارض إليوت معارضة شديدة الاتجاه القائل بأن هذه المدرسة تقف بمفردها بعيدة عن التيار العام للأدب الإنجليزي ، واعتبر هذه المدرسة امتداداً للعصر السالف وهو العصر الإليزابيثي ونمواً طبيعياً لذلك العصر . ويتضح لنا هذا النمو في إحساسهم بالفكرة أو في مزجهم الفكرة بالإحساس ، فالفكرة بالنسبة لهم تشتمل على خبرة كاملة من شأنها أن تغير من مشاعرهم . وقد تنافرت الخبرات وتباعد بالنسبة للشخص العادي ، لكنها تكون في ذهن الشاعر كليات جديدة تتوارد في خاطره توارد الظمان إلى ينبوع الذي يتفجر ماء عذباً . وهذا هو الحال في شعراء هذه المدرسة في اتساع خبراتهم وتنوعها وتشعبها وفي عمقها وإصالتها .

ويضيف إليوت إلى ما تقدم ما نلاحظه في أواخر عهدنا بهذه المدرسة وقبل بزوغ فجر القرن الثامن عشر من انقصاص في عرى الوحدة التي مزجت الفكرة بالإحساس ، وهذا الانقصاص لم تنق منه في محيط الفكر والأدب حتى يومنا هذا على حد تعبيره . وما ساعد على انفراج شق الرحي ما تركه كل من ملتون ودرابدن من آثار وخيمة في هذا المضمار .

في الوقت الذي أصبحت فيه اللغة أكثر طوعاً وصياغة في يد الشاعر ، تبلورت المشاعر، ووهنت الأحاسيس . فلقد كان الشعراء الميتافيزيقيون أكثر نضجاً من شعراء القرن الثامن عشر ، ولهذا أمكنهم التعبير في أصالة واضحة عن مناطق الفكر والإحساس والجمع بينهما ، فكان لشعرهم صدى عميق في نفوس كتاب القرن العشرين . هذا إلى أن الصورة الشعرية الميتافيزيقية لشعراء القرن السابع عشر كانت أقدر من غيرها في التعبير عن تعقيد الحياة وتشعب المدنية ، فرجع شعراء العصر الحاضر بمخيلاتهم إلى هذا ينبوع الحى ليسد غلتهم ، ويفصح عما تجيش به صدورهم ، وما يحسون به في أعماق نفوسهم .